مبدأ المسؤولية وسؤال الإنسان الراهن عند هانس يوناس

The principle of responsibility and the question of modern man according to Hans Jonas

هشام مصباح.، كلية العلوم الانسانية والاجتماعية
جامعة .عبد الحميد مهري قسنطينة2

تاريخ الاستلام: 2020/11/01 تاريخ القبول: 2020/11/22 تاريخ النشر: 2020/12/30

الملخص: علاقة الإنسان بالطبيعة علاقة قديمة متجددة باستمرار، فهي مجال العيش الوحيد ومصدر كل حاجياته الضرورية التي لا يمكن تعويضها بنتائج العلوم وقوتها المادية خصوصاً في القرن العشرين وبدايات القرن الحادي والعشرين، الذي عرفَ تحولات عظيمة شملت جميع مناحي الحياة الإنسانية، وأمام هذه التغيّراتِ الشاملة التي عرفهَا العالم نادى العديد من الفلاسفة وعلماء الأخلاق بضرورة عودة الحس الأخلاقي في قلب التجاوزات العلمية والتقنية على البيئة والإنسان.

الكلمات المفتاحية : الإنسان، الطبيعة، الأخلاق البيئية، العلم التقني، تجربة العيش المشترك

Abstract :Man's relationship with nature is an ancient relationship that is constantly renewed, as it is the only area of living and the source of all his essential needs that cannot be compensated for by the results of science and its material strength, especially in the twentieth century and the beginning of the twenty-first century, which included great transformations that included all aspects of human life. Philosophers and ethicists call for the return of the moral sense at the heart of scientific and technical excesses on the environment and humans.

Key words: human, nature, environmental ethics, technical science, coexistence experience

هشام مصباح، دكتور ،.hicham.philo21@gmail.com, مخبر البحث. مخبر العلوم الإنسانية والاجتماعية
جامعة قسنطينة2

مقدمة:

تشير كل الدلائل والإرهاصات إلى أن هذا القرن هو قرن من يمتلك المعرفة، ومن يستطيع تطويرها لمسايرة التطور والنهضة الحديثة، فلم يعد اكتشاف الذهب أو النفط أو غزو الأراضي واستعمار الشعوب، الموصل الى القوة الاقتصادية ، أو الهيمنة الثقافية ، بل توصلنا إليها القدرة على كتابة البرامج المعلوماتية وفك رموز الجينات أي امتلاك المعرفة في كل الفروع والتخصصات، عن طريق ما يعيشه العالم اليوم من ثورة بيولوجية هائلة حيث قيل عنها بأن ما تم إنجازه في الخمسين عاما الماضية يفوق أضعاف الإنجازات البشرية منذ خليقة الإنسان فالتطورات التي مست علم الوراثة كانت عملاقة حيث ساعدت الاكتشافات العلمية في سائر العلوم على سبر أغوار الخلية والكشف عن مكنوناتها وأسرارها، والتعرف على الجينات أو كما يطلق عليها اسم "**الذهب الأخضر** " في القرن العشرين، حيث مكنت هذه الاخيرة من توفير أليات التحكم والتغيير وإحداث الفعالية العلاجية، والهدف الوحيد طبعا هو تحقيق ذلك الحلم الذي قض مضاجع العلماء وأرق نفوسهم ألا وهو التعرف على الحياة وأسرارها والتحكم فيها وبالتالي السيطرة على الطبيعة وتغييرها، فكل هذا ناتج عن الثورة العلمية والتقنية وخاصة الثورة البيولوجية وتطبيقاتها التي فاقت الخيال ومست كل المجالات من الطب إلى التغذية والزراعة وتربية الحيوانات وصولا الى الإنسان والتحكم في أليات سيره، وسنحاول في هذا الفصل الموسوم بنتائج الثورة البيولوجية وتطبيقاتها التعرف على اهم إفرازات هذه الثورة وتطبيقاتها وما نتج عنها من أسئلة ومشكلات تتعلق بالكائن البشري، وقد الفيلسوف الأمريكي هانس يوناس من بين الفلاسفة الدين أسهموا في حقل السؤال الاثيقي خصوصا ما تعلق منه بإفرازات الثورة البيولوجية وتدخلها على الكائن الحي عموما والانسان على وجه الخصوص، وعليه سنحاول في هذه الورقة البحثية الولوج إلى أهم المسائل الراهنة في ميدان البيولوجيا والبيوتكنولوجيا خصوصا أمام التقدم الرهيب الذي حققه العلم في القرن العشرين وبدايات القرن الواحد والعشرين، فما هي الأسئلة الحاسمة التي اثارها يوناس ضمن فسلفته الأخلاقية؟ وفي ما يتجلى موقفه من هذه التدخلات على الإنسان والبيئة؟

الكلمات المفتاحية: مبدأ المسؤولية، الأخلاق الراهنة، سؤال الإنسان، هانس يوناس.

1- الأخلاق الراهنة وسؤال الإنسان المعاصر: تميز القرن العشرين بمجموعة من التحولات الكبرى التي مست صميم الحياة الإنسانية وتغلغلت في داخلها محدثة العديد من الشروخات داخلها نتيجة التأثير الكبير الذي أحدثه فيها ومن ثمة حملت معها رياح التغيير الذي اكتسح جميع مجالات الحياة، وكل هذه التحولات كانت بفعل القوة الهائلة التي اكتسبها العلم في هذا القرن ومن ثمة عودة الأسئلة المحورية المتعلقة بالإنسان خصوصاً في جانبه الأخلاقي الذي يشهد تغيرات كبيرة على جميع الأصعدة يمكن البحث فيها من زاوية افرازات الثورة العلمية ومنتجاتها على الإنسان وأهم هذه الثورات هي الثورة الفيزيائية التي ا قتحمت عالم الذرة كاشفة عن ألغاز عالم المادة في ما يعرفُ بالثورة الكمومية أو نظرية **الكوانطوم** تبعتها

الثورة المعلوماتية بما أتاحته من نتائج مذهلة في ميدان **الاتصال والرقمنة** عبر الأجيال المتعددة للأنترنيت والتي كشفت عن مجال أخر من القوة العلمية التي تغلغلت في ميدان الحياة الانسانية أما الثورة الثالثة التي عاشها القرن العشرين هي **الثورة البيوتكنولوجية** أو البيولوجية بما أمدته من معارف ساهمت في التعرف على **أسرار الحياة** والكشف عن مكنوناتها وأسرارها العجيبة بعد أن كانت من قبيل الأمور المقدسة التي لا يجوز الخوض فيها أو الاقتراب منها، ومن ثمة فقد أخضعت الثورة البيولوجية الكائن الحي للدراسة العلمية التجريبية مثله باقي الموضوعات الأخرى في علوم المادة الجامدة، وهي الفكرة التي اهتم بتحليلها كلود برنارد في كتابه مدخل لدراسة الطب التجريبي، فقد كان القرن العشرين من دون أيٌّ منازعٍ وتربعت الجينات على كل المصادر الأخرى حيث لقبتْ بالذهب الأخضر نتيجة الخدمات المهمة التي قدمتها في ميدان الطب والبيولوجيا وبقية المعارف الأخرى ذات العلاقة المباشرة بها، ليتم الإعلان عن بدايةِ مرحلة جديدة مختلفة تماماً عن باقي المراحل الماضية حيث أصبح الكائن الحي عموماً والإنسان على وجه الخصوص موضوعاً أساسياً للتساؤل الأخلاقي الراهن نتيجة الأخطار التي أصبحت تتربصُ بهِ من كل الجوانب انطلاقاً من المقولة التي مضمونها ليس كل ما هو ممكنْ علمياً مباحٌ أخلاقياً فالكثير من القضايا التي يمكن للعلم القيام بها فيها الكثير من المضرة للكائن الحي مهما كانت مكانته ووجوده، وبالتالي ضرورة عودة السؤال الأخلاقي من أجل مرافقة العلم التقني في مسارهِ التقدمي الذي يفرض التوقف والالتفات إلى الوراء لمعرفة مدى الأثار السلبية التي يمكن أن تنشأ من جراء اختراقه لمملكة الكائن الحي المقدسة والمحصنة من جميع جوانبها.

فالعلم في القرن العشرين وبدايات القرن الحادي والعشرين يعيشُ مرحلةً جديدة لمْ يعرفهَا من قبل طوال تاريخه القديم وحتى الفترة الراهنة نتيجة تداخل المعارف مع بعضها من جهة، ومدى هشاشة الأنظمة العالمية في التحكم في التقنية وتطويعها في خدمة الإنسان خصوصاً إذا تعلق الأمر بمسألة الفيروسات والأوبئة والأمراض المعدية الناتجة عن مصادر مجهولة قد تكون من مصدر طبيعي أو ذات مصدر اصطناعي سببه الأول الإنسان الذي لم يستطع السيطرة على هذه الأبحاث ومن ثمة حجم الكارثة التي يمكن أن تصيب البشرية من جراء هذه التجاوزات الرهيبة التي يتميز بها قرننا الراهن، بالإضافة إلى الفيروسات والأوبئة توجد الأخطار الايكولوجية التي لا تقلُ عن الفيروسات والأوبئة والتي تشكل تهديداً حقيقياً للإنسان والحياة على الكوكب الأزرق نتيجة التجاوزات والانتهاكات الصريحة والمضمرة تجاه الطبيعة خصوصاً لدى الدول المتقدمة التي تساهم بنسبة كبيرة في عملية التلوث بشتى أنواعهُ وبالتالي الانعكاسات التي يمكن أن تنشأ عنها، من هنا تحاول الأخلاق الراهنة أن تبحث في قلب هذه التحولات التي يمرُ بها العالم على جميع الأصعدة وفي كل مجالات الحياة الإنسانية الاجتماعية، الاقتصادية، السياسية والثقافية والأخلاقية، إنها نوع من أخلاق المستقبل التي لا تهتم باللحظة الحاضرةِ فقط بل تؤسسُ لمرحلة جديدةٍ في مجال التشريع الأخلاقي الذي ينقصُ العالم المعاصر الذي اتخذ طريقا أحادياً فصل فيه بين

الأخلاق والعلم فصلاً تاما وهو ما نجده في المؤسسة الجديدة التي تسمى البيواطيقا التي نحت مصطلحها طبيب السرطان الأمريكي بوتر في مقاله المشهور الموسوم ب: البيواطيقا جسر نحو المستقبل، وفيه تأكيدٌ صريحٌ على ضرورة إعادة ربط الثورة العلمية والتقنية في القرن العشرين بميدان القيم الأخلاقية كي يتسنى لها وضع الحدود الحمراء التي لا يمكن للعلم اجتيازها مهما امتلك من أدوات وتقنيات تمكنه من ذلك خصوصاً إذا تعلق الأمر بالكائن الحي، وهذا لا يقتصر على التطبيقات الطبية والبيولوجية بل يشمل جميع مجالات الحياة الإنسانية تحت ما يعرفُ بالأخلاقيات التطبيقية التي تهتم بدراسة انعكاسات السلوك الإنساني على كافة مجالات الحياة الإنسانية سواء الاقتصادية أو الاجتماعية وحتى الثقافية والحضارية باعتبارها دراسة للسوك الإنساني في خضم التجاوزات الخطيرة على مصير الإنسان ووجوده ومن هذا المنطلق تحاول الأخلاق الراهنة وضع مجموعة من الأسس والمبادئ التي لا يمكن اختراقها تحت أي ظرف أو مبررٍ من المبررات، لذلك برزت العديد من الأسماء الفكرية الفلسفية التي اهتمت بهذه المسألة وأولتها العناية الفائقة التي تستحقها لعل من أبرزها في الفترة المعاصرة والراهنة الألماني هابرماس من خلال نقده الصريح للتجاوزات البيوتكنولوجية على الكائن الحي ومدى الأخطار التي تهددُ الحياة الطبيعية للإنسان في خضم هذه التحولات الهائلة التي تعرفها الثورة البيولوجية في القرن العشرين، كما نجدْ أيضاً الفرنسي ادغار موران من خلال منهجه الإنساني القائم على ضرورة عودة سؤال الأخلاق والقيم في مسار العلم والتقنية التي جعلت الإنسان المعاصر يعيش اغتراباً حقيقيا عن ذاته وواقعه وعالمه المعيش، فإذا التقنية قدْ حققت له كل ما يتمنى ويشتهي فإنها أيضاً قد أوصلته إلى منطقة حاسمة في تاريخه لم يسبق وأن عاش مثلها من قبل، وأيضا الألماني هانس يوناس فيلسوف الأخلاق الجديدة في القرن العشرين وراعي حقوق الإنسان والبيئة التي تعدْ من المسائل الحاسمة التي يجبُ التوقف عندها كثيراً خصوصا بعد الأخطار الكبيرة التي تعرضت لها من طرف الإنسان في كل نقطة من كوكبنا الأزرق الذي يشهد تحولات خطيرة تنبأ بضرورة التريثُ في التعامل معها قبل فوات الأوان، فهانس يوناس من خلال تشريعه لأخلاق المستقبل ومبدأ المسؤولية الأخلاقية في التعامل مع الإنسان والبيئة يضعنا وجهاً لوجه أمام نقطة مهمة لطالما تم تجاهلها عنةٌ من قبل الدول الأكثر تصنيعاً في العالم كونها تهددُ مصيرها الاقتصادي بالدرجة الأولى فلا يهمُ مدى الأضرار التي يمكن تصاب بها البيئة بقدر ما يهم المزيد من الأرباح الاقتصادية على جميع الأصعدة، ولعل أفضل دليل على كلامنا هذا انسحاب الولايات المتحدة الأمريكية من معاهدة الحفاظ على البيئة والتقليل من حجم النفايات السامة المضرة بالبيئة.

1- أخلاق من أجل البيئة عند هانس يوناس: تعرضت البيئة إلى انتهاكات صريحة من طرف الإنسان وسلطته التقنية التي عاثتْ فساداً في الأرض ضاربة كل الحقوق والضوابط الأخلاقية عرض الحائط، الأمر الذي يندرُ بحجم الخطر المحدق بالبشرية جراء هذا الاستنزاف الرهيب الذي يمسُ صميم الوجود الإنساني في عالمه البيئي الملوث برا وبحرا وجوا بفعل الافرازات السامة التي تنبعث من كبريات المصانع في العالم، دون التفكير في عواقبها الوخيمة على الحياة، من هنا سعى العديد من الفلاسفة والمفكرين وعلماء

البيئة وغيرهم من الفاعلين في مجال البحث الايكولوجي وسؤال الأخلاق والمصير المشترك على كوكبنا الأزرق، ومن أبرز هؤلاء نجد الألماني هانس يوناس الذي قدم أطروحات معمقة في أخلاقيات البيئة ضمن ميدان الأخلاق التطبيقية التي تحاول إيجاد مكانها الحقيقي في ظل تجاوزات الإنسان على الطبيعة، فالأخلاق والبيئة مفهومان لا يجب أن ينفصلا عن بعضها البعض لأن في ذلك مساس بحرمة النظام البيئي ودوره المحوري في الحياة الإنسانية، لذلك مبدأ المسؤولية بمثابة ردة الفعل القوية من هانس يوناس تجاه المخاطر المتعددة التي تعيشها الطبيعة اليوم في الواقع المعاش، ومن ثمة التنبيه إلى الخطر المحدق بناً في خضم هذا الواقع المتأزم الناتج عن نقص الوعي في التعامل مع الطبيعة، وتوجيه اللوم إلى العولمة كونها اهتمت بجميع مجالات الحياة الإنسانية المادية وأهملت الجوانب المعنوية ومن أبرزها مسألة البيئة والمحافظة عليها، في حين الواقع يؤكد تدميرنا المباشر للمجال الحيوي دون أن نتحمل أيّ مسؤولية في ذلك، فالأخلاق والدين والسياسة الاجتماعية لا يجب أن تطبق منعزلة عن بعضها البعض بل ضرورة أن تتماشى مع بعضها البعض خدمةً للكائن الحي ومصيره على الكوكب الأزرق.

فقد اهتمت الفلسفة الألمانية منذ تاريخها القديم وإلى اليوم بقضايا البيئة وأخطار التقنية على الكائن الإنساني حيث نجد هيدجر في هذا الصدد وموقفه الصريح من التقنية وخطرها على الوجود الإنساني، أيضاً مقاربات حنا أرندت في تشخيصها لتجاوزات الإنسان في حق الطبيعة ومدى الانعكاسات التي يعاني منها، فقد أكد يوناس على أن التقنية والصناعة تهددان التوازن الطبيعي للبيئة بسبب تجاوزهما الحدود المسموح بها في تطبيقاتها المتعددة ، هذا التشخيص للوضع الحالي الذي يعيشه العالم أطلق عليه يوناس لفظ " العيش في حالة طوارئ" أو العيش في حالة طوارئ، مضيفاً عبارات أخرى مثل العالم في وضع مريض، أو في حالة العيادة وغيرها من المرادفات التي تنطبق على الحالة الراهنة للطبيعة[1]، وهذا لا يعني أن يوناس يرفض الحضارة التقنية وما قدمته من خبرات للإنسانية ولكن ما يعاب عليها إهمالها الكبير لقيم الإنسان وجانبه الأخلاقي، لأن الواقع الراهن قد فرض نوع جديد من القيم الأخلاقية ليست الأخلاق بين الإنسان والإنسان فقط بل الأخلاق التي تقوم بين الإنسان في مواجهته المباشرة مع الطبيعة، لأن الأخلاق التقليدية لم تكنْ مؤسسة على افرازات الثورة العلمية والتقنية بل كانت مرتبطة بمسائل نظرية متعلقة بميدان الفعل الأخلاقي، في حين الأخلاق الجديدة ارتبطت بشكل وثيق بالتقنية ومخلفاتها على الحياة الإنسانية، ومن ثمة الأسئلة الحاسمة التي تطرحها التقنية في تدخلها غير الأخلاقي على الطبيعة والكائنات الحية، وغيرها من المسائل ذات العلاقة المباشرةِ بها، لقد كانت كل مؤلفاته على أهميتها كلها وإن

[1] -Hans Jonas. Une Ethique pour la Nature. Traduction a partir de l'Allemand sylvie courtine –Denamy . ARTHAUD POCHE . paris 2020. P.18.

مبدأ المسؤولية هو من يمثل القلب الحقيقي لجميع أعماله السائرة في طريق رفض التطبيقات التقنية على الطبيعة الإنسانية والأخرى غير الإنسانية بمعنى إعادة التفكير في هذه التطبيقات من زاويةٍ أخلاقية مرافقة لمسار التقدم التقنوعلمي على الطبيعة التي عرفها العالم المعاصر ، فالأخلاق التقليدية غير قادرة على حماية الإنسان والطبيعة أمام تيار التقنية الجارف من جميع جوانبه .

2- التقنية والطبيعة والأزمة الايكولوجية عند هانس يوناس: في تعقيبه على مضمون الأخلاق التقليدية التي أصبحت غير قادرة من وجهة نظره على وقف تجاوزات التقنية والأثار السلبية التي تركتها على الإنسان والطبيعة يقترح هانس يوناس أخلاق أخرى جديدة هي أخلاق المسؤولية التي تركز على نظرتها الشمولية للمستقبل بوصفه حقوق الأجيال التي لم تولد بعد على تعبير فتحي المسكيني، فالنظرة المستقبلية للأخلاق هي الغاية النهائية التي تتأسس عليها النظرية الأخلاقية لهانس يوناس الذي رَكزَ جميع أفكاره حول ربط الأخلاق بالطبيعة، وهو ما نجده في مؤلفه مبدأ المسؤولية الذي يعتبرُ بمثابة تأسيس للفكر الايكولوجي المعاصر.

لقد سعتْ الأخلاق اليوناسية إلى نقد الطرح الأخلاقي الكلاسيكي عموماً والنظرية الكانطية على وجه الخصوص حيث يرى بأنها ناقصة وقاصرة على فهم العلاقات المتنوعة التي يقوم بها الإنسان، هذه العلاقات التي حصرها كانط في بعد إنساني واحد جاعلاً منه الأساس الوحيد للأخلاق الصورية المتعالية، أيّ التركيز على الإنسان فقط دون واقعه الطبيعي، أما عند يوناس فالأمر مختلف حيث تقوم الأخلاق عنده على ثنائية الإنسان و الإنسان الأخر، ثم ثنائية الإنسان والطبيعة، لتعبّر عن بعدها الايكولوجي العميق خلافاً للنظريات القديمة التي أسست للقطيعة مع الطبيعة ومن ثمة عجزها في مواكبة التطورات الحاصلة في الأخلاق التي لابد لها من مرافقة الوجود الإنساني في جميع تفاصيله ضمن تجربته المعيشة، فالعالم يعيش أزمة ايكولوجية بكل ما تعنيه كلمة الأزمة من معاني لعل من أهمها تلك اللحظات الحرجة التي تمرُّ بها الطبيعة نتيجة التدخلات الإنسانية الجائرة واستخدام التقنية بشكل غير صحيح، فالتقنية لا يهمها كثيراً الأسئلة الأخلاقية والقيمية المتعلقة بنظامنا البيئي من جهة وبالإنسان من جهة أخرى، لذلك يرفض هانس يوناس وبشكل صريح كل التجاوزات ضد الطبيعة، فالمسؤولية الفردية والجماعية تقتضي مراعاة مركزية الإنسان- الطبيعة في ظل التطبيقات البيو تقنية، ففي خضم هذه التطبيقات التقنية على الكائن الحي والطبيعة التي أصبحتْ تتكلم لغةً مادية وميكانيكية في الوقت ذاته بعيداً عن كل التوجهات الأخلاقية والروحانية المغيبة من قاموس الثورة التقنو علمية المعاصرة، يطرح **هانس يوناس السؤال التالي: كيف تحول المفهوم الحيوي للعالم إلى مفهوم مادي ميكانيكي؟ بمعنى كيف تم التخلي عن الرؤية الأخلاقية المرافقة للتطور العلمي والتقني واستبدالها بالأخرى المادية المحضة، فالطبيعة أصبحتْ فارغةً من كل جواهرها الروحانية و الحياة كلها شملها هذا التغيير؟.**

فالبحث في هذا السؤال مرتبطٌ أساساً بطبيعة العلاقة القائمة بين الإنسان والطبيعة عبر مسارها التاريخي القديم وحتى بلوغه المرحلة الراهنة، حيث تجلتْ علاقة الإنسان بالكون في الفكر الفلسفي

اليوناني أين تبلورت تلك الأسئلة المتعلقة بالوجود وأصل العالم وتفسيرهِ وخلق العالم والوجود، عبر النظريات المختلفة التي برزت في هذا المجال خصوصاً لدى الفلاسفة الطبيعيين الأوائل مثلما هو الحال لدى لوكريوس، فيثاغورس وغيرهم، من خلال ربطهم تفسير العالم بمصدره وكيفية نشأته، الأسباب الميتافيزيقية المرتبطة به، وهي الرؤية التي ستتخذُ مع يوناس مفهوم أخر جديد لم يكن في التفكير التقليدي، ألا وهي النظر إلى العالم باعتبارهِ واقع حي، ومن ثمة تكون الحياة أصل جميع الأشياء[2]، وأيضاً من خلال مقارنته بين المفهوم الحيوي للعالم والمفهوم المادي المناقض له باعتباره وحده المفهوم الحقيقي والواقعي الذي يقبل الدراسة العلمية، وغيرها من المفاهيم الأخرى التي تطرق لها يوناس في حديثه عن مبدأ المسؤولية الأخلاقية مثل التفسير الديكارتي والدارويني.

كما تناول هانس يوناس مسألة العالم بوصفة خبرة معاشة في بحثه عن المعرفة الحقيقية عن العالم التي احتلتْ المركزية في كامل فلسفته وخصوصاً ما تعلق منها بالأخلاقيات البيئية أو الأخلاق الايكولوجية الناتجة عن جملة المشاكل والمخاطر والبيئية التي أصبحتْ بمثابة الهاجس المؤرق للإنسان المعاصر بسببِ زيادة حجم المخاطر الإيكولوجية حيث يقول عمر بوفتاس:" **لقد أدى التدمير المتزايد لعناصر البيئة إلى ظهور فعاليات مختلفة هدفها الدفاع عن البيئة والتصدي لأشكال الإضرار بها، وأدى من جهة أخرى إلى ظهور مجموعة من المصطلحات والمفاهيم الجديدة التي لابد أنْ تنتشر في الساحة الفكرية المعاصرة، وتفرضُ نفسها على المهتمين بقضايا البيئة والتنمية والاقتصاد والصناعة والشأن العام، فهي تشمل كل الأخلاقيات والحقوق المتعلقة بالبيئة والمدافعة عنها ضد كلِ أشكالِ النهبْ والاستغلال المتزايد يوماً بعد يوم بسبب تطور التقنية التي تدخلت في جميع مجالات الحياة الإنسانية**"[3] ومن ثمة التأكيد على العلاقة الجامعة بين الإنسان والبيئة التي يجب أنّ تتأسس على الحب والاحترام والمعاملة الجيدة، ونبد مظاهر التدمير والنهب والاستغلال الجائر الذي يهدف في النهاية إلى اختلال النظام الايكولوجي للعالم والأخطار التي يمكن أن تنجرّ عنه، وهي الفكرة نفسها التي نجدها عند الفرنسي **ميشال سير** في حديثهِ عن العقد الجديد الذي من خلاله تقوم منظومة القيم الخاصة بالبيئة والنظام العالمي الجديد الجائر في حق الطبيعة والبيئة، والذي يسميه العقد الطبيعي، فمن خلاله فقط يتم ضبط طرق التعامل مع البيئة.والأخطار التي تهددُ مصيرها، حيث يقول:" **أننا أصبحنا في حاجة لعقدٍ جديد سماهُ العقد الطبيعي أو العقد البيئي نحددُ فيه علاقاتنا مع البيئة ومختلف أنظمتها على غرار العقد الاجتماعي عند جون جاك روسو في القرن الثامن عشر، فهذا العقل وحدهُ القادر على إحداث**

[2] - Hans Jonas. Une Ethique pour la Nature. Op cit. p.28.

[3] - عمر بوفتاس، الأخلاقيات التطبيقية ومسألة القيم، كلية الآداب، الدار البيضاء، ص،16.

تغيرات جدرية في علاقة الشبر بالبيئة[4]"، لأن الخروج من الوضع البائس الذي يعانيه العالم أخلاقيا يقتضي امتلاك نظرية أخلاقية تتماشى مع الواقع الإنساني الراهن، والتحديات المفروضة عليه على جميع الأصعدة، وهي أيضاً الفكرة التي نجدها عند الفرنسية **جاكلين روس** في سعيها الحثيث نحو معالجة القضايا الأخلاقية المختلفة التي تطرحها التقنية وتطبيقاتها على الكائن الحي عموماً والإنسان على وجه الخصوص سواءٌ تعلقت بالبيئة أو الحياة ككل.

3- **هانس يوناس واخلاق المسؤولية:** يعد هانس جوناس من ابرز الفلاسفة الداعية إلى الموازنة بين حاجات الإنسان والبيئة بمعنى البحث في العلاقة التي تربط الإنسان من جهة والعلاقة بين الإنسان والعالم من جهة أخرى، لذلك أطلق عليه فيلسوف الفكر البيئي الألماني الأكثر تميزاً في هذا المجال بما قدمه من منجزات فكرية كانت بمثابة السياسات التي اتبعتها العديد من الدول في حملاتها الانتخابية، إنه تلميذ هيدغر الذي استفاد كثيراً من أفكاره خصوصا المتعلقة بنقده للتقنية الغربية وتعرية جدورها المتغلغلة في عمق الفكر الليبرالي الغربي، ومن ثمة زعزعة القيم الديمقراطية التي تحد من الحريات الفردية باعتبارها الخطر المحدق بالبشرية، هذا الخطاب الأداتي بلغة زميله يورعن هابرماس الذي أنتج محنة إنسانيةٍ حقيقية قد تكون نتائجها وخيمة على الإنسان، من هنا جاء مشروعه كمحاولة لتقديم فهم جديد خاص بقيم الحداثة وسيطرة التقنية على كافة مجالات الحياة الإنسانية، الأخلاقية والأنطولوجية، وهو الأمر الذي نجده في مجال الدراسات البيواطيقية التي سعت جاهدة لإعادة ربط العلم بالأخلاق بع الفصل التام بينهما مند فترة الحداثة،

[4]- عمر بوفتاس، الأخلاقيات التطبيقية ومسألة القيم، المرجع السابق، ص، 19.

من هنا يمكن القول أن مشروع "**هانس جوناس** الفلسفي ربطٌ بين المشكلات الأنطولوجية والايكولوجية، متعلق أساساً بفكرة غياب تأسيس فعلي للمنظومة الأخلاقية التي تسيّر سلوك الفرد وتوجه وعيه نحو الأفعال الحسنة والخيرة سيؤدي لا محالة إلى نتائج جد سلبية وكوارث لا قبل للإنسان بمواجهتها وأفضل دليل على ذلك الخوف والرعب الكبير الذي يعيشه العالم اليوم في مواجهة الأمراض والأوبئة والفيروسات التي وقف عاجزاً غير قادرٍ على المواجهة، وخاصة إذا تعلق الأمر بمجال البيئة ومشكلاتها: هذه المشكلات التي تزدادُ حدة وخطورةً مع المجتمعات المتخلفة في تعامله مع البيئة والنظام الايكولوجي، مثل مشكلة التزايد السكاني التي تؤدي إلى كوارث إنسانية داخل التركيبة الاجتماعية لهذه الدول ، من ثمة زيادة حجم الصعوبات والعوائق التي تقف بطريق الإصلاح والتنمية وإعادة بناء هذه المجتمعات من جديد.[5] بالإضافة إلى قضية تدخل البلدان المتقدمة الغنية في الدول النامية التي تعيش حالة ضعف رهيب، وبالتالي تكون الفرصة السانحة للقيام بعملية النهب المتواصل لثرواتها، واستنزاف مواردها الطبيعية وجعل أراضيها مرتعاً خصبا لدفن نفاياتها السامة، ومختلف التجارب النووية والبيولوجية الخطيرة التي تقوم بها في العديد من دول العالم الثالث المستضعف، بوصفه أصبح مختبراً للتجارب الخطيرة على الإنسان والبيئة في العالم.[6] ومن ثمة الأسئلة المصيرية التي تطرحها هذه الافرازات على الوضع الإنساني العالمي الذي يفتقر حقيقة إلى عودة الحس الأخلاقي الجمالي المغيب.

أما في البلدان المتقدمة فقد تطور العقل ليغطي هذه النشاطات الإنسانية كافة، ولكن الوعي الأخلاقي أخفق في بناء ذاتهِ بشكلٍ علمي ومدروس، فوقع في الطرف الأخر من المعادلة حيث انسحبت الأخلاق من العقل وتحوّل إلى عقلٍ منفلتٍ غير مبرمج إنسانيا، وتحول دور الأدوات التي صنعها إلى عكس مهامها بحيث أصبحت غاية بحدِ ذاتها.[7]

حيث أصبح الإنسان هو الوسيلة ضمن برنامج طويل الأمدْ للاستحواذِ على خيرات الأرض المادية بوصفها الغاية القصوى مخالفا بذلك أبسط المبادئ الأخلاقية، وأكثرها رسوخاً في التجربة الإنسانية، وهي أنَّ الإنسان غايةٌ علياً لجميع أوجه الحياة، وما هو خارج عن الإنسان مجرد وسيلة لتحقيق هذه الغاية، وبهده الطريقة المعكوسة لإدارة العقل وتشويه مقاصده النبيلة أصبح الإنسان يدور ضمن هذه المأساة ويشئُ

[5]– عصام غصن عبود، دور الوعي الأخلاقي في البيئة الحياتية، مجلة جامعة دمشق، المجلد 22، العدد، 3+4، 2006، ص،21.

[6]– المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

[7]– المرجع نفسه، ص،22 .

نفسه ويشئ الآخرين . [8] بمعنى أصبح العالم يعيش مرحلة تشيء بجميع تفاصيلها الوجودية والأخلاقية وفق مفهوم الألماني **أكسيل هونيث**، فالكلُ خاضعٌ لهذا المبدأ ولا يمكن تجاوز هذه المرحلة إلا من خلال البديل الذي يكمنُ عنده في مبدأ الاعتراف، كما ارتبط مبدأ المسؤولية من زاويةٍ أخرى بمفهوم التنمية المستدامة بوصفها تجسيدٌ لحق الأجيال القادمة في العيش على ثروات الطبيعة دون استنزافها، فتحقيق التنمية المستدامة شرطٌ ضروري في ضمان الحد الأخلاقي المطلوب داخل منظومة الحياة الإنسانية، حيث تكون التنمية المستدامة رؤية جديدة للتغلب على المشكلات البيئية بوصفها مرحلة ترفض الحداثة بعقودها المتعثرة مع التنمية، وتدعوا للتوافق مرة أخرى مع الطبيعة القائمة على الخصوصية التاريخية لكل مجتمع، والتي تكتسبُ دلالاتها الحقيقية من التقدم القائم على مجموعة القيم الأخلاقية والإنسانية تجاه أجيال الحاضر والمستقبل، بوصفها رؤية استشرافية نحو الاستخدام العقلاني للموارد المختلفة والانتفاع بقدراتهم المكتسبة في المجالات الشخصية والإنتاجية و الثقافية مع الحاجة إلى تكنولوجيا جديدة تكون أنظف وأكفأ وأقدر على انقاد الموارد البيئية للحدِ من التلوث والتدهور البيئي، وعلى هذا الأساس اعتبرتْ التنمية المستدامة من القضايا الأولى عالمياً حيث تسابقتْ المجتمعات من أجلها لوضع خططٍ ومشاريع تسعى للنهوض بالمجال الاقتصادي والاجتماعي ورفع المستوى المعيشي .

فالأخلاق البيئية تحوّلٌ نحو موقفٍ صريحٍ يتخذُ من الطبيعة موضوعاً حقوقيا بالمعنى الصحيح، حيثُ يتميز **مبدأ المسؤولية** "لهانس يوناس" وميشال سيرّ بوصفهما سعيٌ نحو أخلاق للبيئة، تختلف عن المفهوم التقليدي للبيئة حيث يتم طرح فكرة الحق الأخلاقي النظري للطبيعة بوصفها واقعاً جديرا بالاهتمام، هذه الفكرة الجديدة التي قدْ تبدو غريبة في ثقافتنا التي تضمُ في الغالب الحق والإنسانية والشخص .[9]

فالأخلاق النظرية البيئية العميقة برعاية هانس يوناس تعبيرٌ عن فكرة امتياز خاص بالإنسان نحو إعلان حقوق الطبيعة، ليتوسعَ مجال الأخلاق فبدلاً من الاعتراف بأن الإنسان وحدهُ غاية بذاته وأنه يملك قيمة مطلقة، فإن الطبيعة أيضا تطالب بعدم معاملتها على أنها مجرد وسيلة, ففوق حقوق الفاعل العاقل تتراكب حقوق الكرة الأرضية ونحن مكلفون برعايتها .[10]

من هنا يؤكد **يوناس** على حق الطبيعة الأخلاقي, في حين يضيف ميشال سير العقد الاجتماعي الشهير تلك المواضعة التي تخيّلها بعض الفلاسفة ومنهم روسو والتي تشكل الأساس المثالي للمجتمع السياسي، بمعنى

---

[8]- عصام غصن عبود، دور الوعي الأخلاقي في البيئة الحياتية ، المرجع السابق، ص، 22.

[9]- جاكلين روس، الفكر الأخلاقي المعاصر، ترجمة وتقديم عادل العوا، عويدات للنشر والطباعة، بيروت لبنان، الطبعة الأولى،2001،ص،118.

[10]- جاكلين روس، الفكر الأخلاقي المعاصر، المرجع السابق، ص، 119.

فكرة **عقد طبيعي** بين الإنسان والطبيعة، فمادامت الطبيعة تعطي الإنسان كل ما يحتاجهُ، فإنّ على الإنسان أن يقدم لها المقابل وقد غدتْ هيَ موضوع حق, فلكي تضل الحياة ممكنة ولكي يستمر النوع البشري علينا أن نعكس وجهة النظر الإنسانوية أو المركزية الإنسانية المدرسية وننشئ عقد طبيعيا يحيلُ إلى أخلاق نظرية موضوعية واقعية نحو الواقع البيئي .[11]

وعليه فمحاولة **هانس يوناس** تقوم على وضع أخلاقي يتمثل في الشعور بالمسؤولية تجاه الآخرين أو الأقران الدين يحتاجون إلى المساعدة وهي مسؤولية لا يمكن التملص منها طالما هناك أخر بكل بساطة، ويُشَّبِهُ المسؤولية تجاه الأخر بالمسؤولية تجاه الرضيع فإنه يكفي في نظره أن يكون هناك مولود جديد حتى تنشأ مسؤولية وهي لا تفرضها قوة الأخر وإنما ضعفه، والأمر نفسهُ في علاقتنا بالطبيعة، فالحضارة التكنولوجية جعلتْ الماهية الإنسانية والوجود الإنساني في خطر مما يتطلب حمايتها.[12]

وبالتالي فنظرية **يوناس** تركز على حق الأجيال القادمة في الوجود، حقٌ يتطلب من الأجيال الحالية تقديم تضحياتٍ عظمى حيث يقول: " تصرف بشكل يجعل نتائج فعلك غير تدميرية بالنسبة لإمكانيات الحياة مستقبلا، ولا تعرِّضُ للخطر شروط بقاء الإنسانية على الأرض.[13]

ومنه فهذا الاعتبار البيئي لطفرات الفعل الإنساني وللواقع الطبيعي هو أمر مشروع شأنه شأن مسعى تفشي مشكلات البيئة في قلب الاهتمامات الأخلاقية النظرية التي ينطوي عليها، والتي جمعها "مارسيل غوشيه" في صيغته: " تحت حب الطبيعة يضمر كره البشر" والحق أن ثمة ثورةٌ كوبرنيكية من نوع جديد تندلع، فلمْ يبقى الإنسان هو الذي يعدُ المركزية المرجعية بل الطبيعة والحياة.[14]

يقول **فتحي المسكيني** عن كتاب **هانس يوناس** مبدأ المسؤولية:" **في هذا الكتاب رسم يوناس الملامح الفلسفية لاستشكالٍ جديد تماماً للمسألة الأخلاقية يدور حول المسؤولية إزاء المستقبل، مستقبل الحياة على الأرض، إذْ يفترضُ أن واجباً جديداً قد ظهر، هو ما يلخصهُ مفهوم المسؤولية، وينطلق من ملاحظة الفراغ الحاصل نتيجة النزعة النسبية الراهنة حول القيم، وهو إشكالٌ لا يمكن أنّ ينّحَلُ إلاَّ بسؤالٍ ميتافيزيقي حول نوع جديد من الأمر القطعي، يتعلق بضرورة الحفاظ على وجود الناس في**

---

[11]- المرجع نفسه، ص، 119.

[12]- Hans Jonas. le principe de responsabilité. Une éthique pour la civilisation technologique. Paris. Cerf.1992.p.30.

[13] - Hans Jonas . le principe de responsabilité. Une éthique pour la civilisation technologique. op cit. p31 .

[14]- جاكلين روس، الفكر الأخلاقي المعاصر، المرجع السابق، 119.

المستقبل" [15]، فالمسؤولية الأخلاقية تقوم بالدرجة الأولى على مستقبل الإنسان وحقوق الأجيال القادمة في الحفاظ على مصيرها ووجودها على الكوكب الأزرق، ويضيف:" وهكذا فإن بناء نظرية في المسؤولية هو مهمة فلسفية عاجلة تفرضها الحضارة التكنولوجية بوصفها نمط الحياة الجديد على الأرض، الذي يستمر إلى أمدٍ غير معلوم"[16]، وقد تضمن كتاب المسؤولية الفصول التالية: في تغيير ماهية الفعل البشري، في مسائل الأسس والمنهج، في الغايات ومواقعها داخل الكينونة، في الخير والواجب والكينونة نظرية المسؤولية، المسؤولية اليوم المستقبل المهدد وفكرة التقدم، في نقد الطوباوية وإتيقا المسؤولية[17].

هذه الطوباوية التي فتحت المجال للعلم والتقنية بالتوغل في كل مجالات الحياة الإنسانية في العالم، بحيث لم تترك مجالا دون أن تشمله دون أن تهتم بالسؤال الأخلاقي المترتب عنها، خصوصاً في القرن العشرين وبدايات القرن الحادي والعشرين الذي عرف تطورات رهيبة لم يسبق لها أن حصلت في كافة مجالات المعرفة الإنسانية، فالحضارة التكنولوجية تدفع البشر إلى القيام بأفعالٍ تجاه الطبيعة تؤدي في النهاية أي في المستقبل البعيد إلى تدمير شروط الحياة على الأرض، وهكذا فإن الفاعل لن يكون موجوداً حين يؤدي فعله إلى نتائج كارثية على الأجيال في المستقبل، من ثمة نكون أمام التساؤل التالي: كيف نقيم المسؤولية على فاعلٍ انقرض مند أجيال، ولم يعدْ له أي علاقة بفعله الماضي[18]؟، هذه هيّ الفكرة التي يعبرُ فيها يوناس بتغيّرِ ماهية الفعل، بمعنى أنّ الفعل أصبح مرتبط بالمستقبل ونتائجه البعدية التي لن يكون الفاعل موجوداً فيها بل يصبحُ من الماضي، ومن ثمة العودة إلى السؤال الأساسي المرتبط بالمسؤولية.

خاتمة: من خلال تحليلنا لهذه الورقة البحثية الموسومة بمبدأ المسؤولية وسؤال الإنسان الراهن عند هانس يوناس مقاربة فلسفية تغوص في أعماق التأصيل الأخلاقي للوضع الإنساني والبيئي في ظل التحولات الراهنة التي يعرفها العالم اليوم على جميع الأصعدة، ومن ثمة تعدد الأسئلة المرافقة لها سواءٌ في جانبها الأنطولوجي أو الأكسيولوجي، يمكن الوقوف عند النقاط التالية:

1- علاقة الإنسان بالطبيعة مربوطة بالعديد من التحولات التي عرفها الإنسان عبر مسارهِ التقدمي، من خلال صراع الإنسان مع الطبيعة بحثاً عن السيادة الموعودة مند عصر الأنوار والفترة الحديثة الغربية على وجه الخصوص.

---

[15] - فتحي المسكيني، المستقبل أمانة الذين لم يولدوا بعد، مؤسسة مؤمنون بلا حدود، 2017.

[16] - ، المرجع نفسه.

[17] - المرجع نفسه.

[18] - المرجع نفسه.

2- لقد نتج عن الثورة العلمية والتقنية العديد من المسائل الحاسمة المتعلقة بالجانب الإنساني، والتي أصبح يعبّرُ عنها بلفظ الأزمة التي شملتْ جميع مناحي الحياة الإنسانية خصوصا ما تعلق منها بالسؤال الأخلاقي المغيب من مساره العلم والتقنية.

3- المشاكل الايكولوجية واحدة من الأخطار الكبيرة المحدقة بالإنسانية من جوانبها المختلفة والتي تبحث عن مكانها الحقيقي في ظل نظام رأسمالي عالمي لا يعترفُ إلا بالجانب المادي النفعي .

4- من بين الفلاسفة الدين اهتموا بمسألة الإنسان والبيئة الألماني **هانس يوناس** من خلال نظريته الجديدة في المسؤولية التي تقوم على ضرورة تحمّل الفرد لتبعات أفعاله وأعماله والأضرار الناتجة عنها من زاويا متعددة، ومن ثمة أولوية الحس الأخلاقي وضرورته القصوى في كل الأمور.

ويبقى سؤال الإنسان السؤال المركزي والأساسي في كل المسائل والقضايا المصيرية التي تحتاج دائماً إلى إعادة قراءة الواقع الإنساني ومنظومته القيمية التي تسير بشكل منعكس وفق سلم القيم الذي حثَّ عليه الألماني ماكس شيلر.

قائمة المصادروالمراجع:

1-المراجع باللغة العربية:

[1]- جاكلين روس، الفكر الأخلاقي المعاصر، ترجمة وتقديم عادل العوا، عويدات للنشر والطباعة، بيروت لبنان، الطبعة الأولى،.2001

[2] - عصام غصن عبود، دور الوعي الأخلاقي في البيئة الحياتية، مجلة جامعة دمشق، المجلد 22، العدد، 3+4، 2006.

2-المقالات والمجلات:

[1] - عمر بوفتاس، الأخلاقيات التطبيقية ومسألة القيم، كلية الآداب، الدار البيضاء.

[2] - فتحي المسكيني، المستقبل أمانة الذين لم يولدوا بعد، مؤسسة مؤمنون بلا حدود، .2017

3-المراجع باللغة الأجنبية:

[1]- Hans Jonas . le principe de responsabilité. Une éthique pour la civilisation technologique. Paris. Cerf.1992.

[2] -Hans Jonas. Une Ethique pour la Nature. Traduction a partir de l'Allemand sylvie courtine –Denamy . ARTHAUD POCHE . paris 2020.